

## دراسة حصرية للمنتدي: فلسطين في القصة الإسلامية

إذا كانت قضية فلسطين قد أخذت حيزًا واسعًا في الشعر الإسلامي المعاصر الذي تابع أحداثها وصور مأساتها ودعا إلى الجهاد والاستشهاد دونها، بحيث أصبح ما قيل يشكل مجاميع كبيرة رصدت واقع المأساة والمستجدات والمتغيرات أولًا بأول - فإن ذلك يعود إلى طبيعة الشعر فإنا ينطلق بعفوية بعد أن تقذف به القرية التي تتعرض للمحرضات المستمرة والدافعة إلى القول، وهذا يختلف عن طبيعة الفن القصصي الذي يحتاج إلى شيء من الروية والمعالجة ولا يمكن في أكثر الأحوال أن يكون استجابة آنية تستطيع مواكبة الشعر، إلا أن هذا لا يعني أن هذا الفن قد قصُر، ولكن طبيعته - كما أسلفنا - تأتي الانقياد للتحرير المباشر ولذا أصبحت الأولوية في ساحة القول للشعر وحده!

ولكن هل قصرت القصة الإسلامية بأنواعها في تصوير الواقع ومتابعة الحدث والدعوة إلى المواجهة؟

لقد استطاعت القصة الإسلامية أن تضع القضية في إطارها التاريخي الواسع بدءًا بالمواجهة مع اليهود في أول الدعوة الإسلامية، وانتهاءً بالمواجهة التي تجري اليوم على أرض الإسراء وموطن الأنبياء مع رؤية مستقبلية لما سيؤول إليه الصراع وتسجيل لما عليه المقاومة في هذا الظرف المشحون بالصراع فنحن - وكما هو معلوم - لا نواجه قوما لا نعرفهم أو ليس بيننا وبينهم عداة تاريخي عقدي! إن رواية (نور الله) لنجيب الكيلاني تصور الصراع الدامي الذي خاضته الدعوة الإسلامية إبان ظهورها ببساطتها وسماحتها وقوة بياها في مواجهة اليهودية بدهائها وتاريخها ممثلة في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب يعضدهم فريق من المشركين وفريق من المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي، والرواية كذلك تشير إلى سماحة الإسلام مع خصومه وتنتهي بفتح مكة إذ خضعت رؤوس العناد فيها أمام رسول الله الذي توجه إليهم قائلًا: «أذهبوا فانتم الطلقاء».

وأما عبد الحميد جودة السحار فقد رجع إلى أبعد من ذلك كما في مجموعته (قصص من الكتب المقدسة) فتحدث في أقصوصة (أستير) عن استخدام اليهود للمرأة كي يصلوا إلى غاياتهم وفي (سالومي) عن دورها في تنفيذ العدوان على حياة الأنبياء! (١) وليس ذلك غريبًا عنهم فقد حاولت المرأة اليهودية قتل النبي ﷺ بوضع السم له في شاة قدمتها له!

وفي (دم لفظير صهيون) لنجيب الكيلاني تتوضح جرائم اليهود بحق الإنسانية وهي الجرائم التي واكبت التاريخ فلم تتوقف في أي فترة من فتراته ولعل كتاب (اليهود وذبائحهم من بني الإنسان) الذي استعرض هذه الجرائم تاريخيا يبقى وثيقة إدانة لا تستطيع يهود التنصل منها أو إنكارها وهي ثابتة تاريخيا منتشرة في أصقاع الأرض حيثما حل اليهود وأقاموا، وعنهما يقول الدكتور نجيب الكيلاني في كتابه (تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية) (٢) القصة الوثائقية لونا خاص من الفن القصصي إذ أنها تعتمد أساسا على وثائق مثبتة والوقائع في حد ذاتها مادة تكاد تكون علمية وجافة على الرغم من أنها ربما تكون مثيرة ومؤثرة لكنها تفتقر بالتأكيد إلى عناصر القصة الفنية، ويضيف: «كنت مؤمنا أن حربنا مع اليهود حرب دامية طويلة وأنها متنوعة الأسلحة ومن الأسلحة الفعالة في هذا العصر: القصة والأدب، بل الفن بصفة خاصة ولا شك أن القارئ سيشعر عقب قراءة القصة بالسخط والكراهية والغضب لما يفعله اليهود بغيرهم».

وملخصها: أن مجموعة من اليهود أقدموا على ذبح القسيس البادري توما مع خادمه إبراهيم عمار؛ للحصول على دم مسيحي لاستعماله في الفطير المقدس الذي يعده اليهود في أعيادهم.

والقصة تصور الحقد اليهودي متمثلا في أشخاص الحاخامات الذين أشرفوا مباشرة على الذبح وامت العملية بإشرافهم وتخطيطهم، كما تتحدث عن انكشاف أمرهم ودخولهم السجن إبان حكم محمد علي باشا لمصر وسيطرته على الشام، كما تتحدث عن التدخل اليهودي العالمي لستر هذه الفضيحة التي اطلعت عليها قناصل الدول في دمشق .

وتخطو بنا القصة الإسلامية سنوات فنقف في (مشرد بلا خطيئة) للدكتور محمد عبده يماني مع أسرة فلسطينية تسكن في عين كارم تجاورها أسرة يهودية مهاجرة، هي أسرة حايم التي لم تظهر أي عداوة حتى إذا وقعت نكبة /١٩٤٨ م /انكشفت خفايا (حايم) الذي لم يكن أقل عداوة من رجال العصابات فقضى أبو إبراهيم ورحلت أسرته إلى القدس ثم إلى عمان وامتدت يد حايم لتنهب كل ما تركه الجار النازح.

ويكبر إبراهيم وتشاء الأقدار أن يقع يوري ابن حايم في الأسر بعد معركة الكرامة ويستدل على إبراهيم بواسطة وشم في يده ويحاول أن يستعطفه مذكرا بماضي الطفولة، ويقترب منه وهو يستل سكينها يجنبها تحت إبطه ليطن بها إبراهيم الذي عاجله بطلقات ترديه قتيلا ولم يستطع الغدر اليهودي الذي استغل التسامح العربي أن ينجح في هذه المرة!

وتلاحق القصة الإسلامية شتى المنحنيات التي تمر بها القضية الفلسطينية، ففي أقصوصة (الأرض) (٣) لمحمود مفلح من مجموعته (القارب) تصوير لإصرار الفلسطينيين على تحرير الأرض ولو بشكل فردي مهما كلف ذلك من تضحيات. وتوضح أقصوصة (الفيستان والرصاص) (٤) هذا التوجه إذ ينخرط الكبار والصغار والرجال والنساء في المقاومة ويجدون أنها الطريق الصحيح الذي يقود إلى التحرير مع عظم التضحيات وشدة المعاناة، فهذا مجاهد فلسطيني تتحرك عاطفة الأبوة في حناياه ويحلم أن يتيسر له شراء ثوب جديد لابنته ويتحقق الحلم ويعود إليها فرحاً، ولكن فرحته تكبر أكثر حين يفاجأ بأنها انخرطت مع خالها في العمل الجهادي، وأصبحت تحمل مسدساً تدفع فيه عن نفسها لترد عنها وعن قومها أياب الذئاب البشرية المتربصة الشرهة إلى القتل والدماء، وينقل محمد جاد البنا في أقصوصة أخرى عنوانها (المخيم والبحر) (٥) صورة أخرى فيحدثنا عن الشيخ أمين الذي يعيش في مدينته الساحلية ويهاجم مع عدد من شباب المدينة قوات الاحتلال، الأمر الذي أذهل المعتدين ولم يستطيعوا أن يعرفوا الذي يكيل لهم الصاع صاعين، ولكن استشهاد الشيخ مع مجموعة من شباب المدينة يكشف السر الذي طالما أعيا المختلين، وفي نفس الاتجاه ينقل محمد السيد في أقصوصة (العودة) (٦) من مجموعته (شاطئ الرؤى الخضر) معاناة مهاجر فلسطيني ترك أبناءه وزوجه وذهب ليعمل مع ابنه الأكبر في بيروت، وفي أثناء العودة وعند أحد الحواجز تمتد يد الإجرام فتتهب ما كسبه الأب وتقتل ابنه فلا يجد الأب المفجوع بدا من العودة إلى الثأر بعد أن وصل إلى مشارف قريته.

ويكاد القاص الفلسطيني محمد السيد لا يترك شريحة من شرائح المجتمع الفلسطيني إلا ويصور بطولاتها ومقاومتها ومعاناتها ففي (خط اللقاء) (٧) يلتقي مع العامل العربي الذي يعمل في مصفاة حيفا في مرحلة من مراحل الصراع العربي اليهودي على أرض فلسطين وفي أقصوصة (العملاق) (٨) يتحدث عن بطولة طفل فلسطيني استطاع أن ينقذ رجلاً بعد مذبحته قام بها اليهود معرضاً حياته للخطر.

وكانه يستشف أستار المستقبل في دور يقوم به أطفال فلسطين وفتياتها! وأما أقصوصة (رحلة مع الموت) (٩) فتصور الشوق إلى الوطن بعد أن طال الانتظار وكيف أن هذا الشوق يدفع بصاحبه إلى الموت أحياناً وهذا ما حدث لفلسطيني يعيش في قرية قريبة من حدود فلسطين

المختلة يهبي نفسه للعودة لكن أمله يخيب فتقتاده دورية إسرائيلية. ومع وجود كل هذه البطولات والتضحيات والمعاناة فإن (أبو كليب) (١٠) يمثل نموذجاً للمتساقطين الذين لا يكاد يخلو منهم مجتمع يكشفون ستر قومهم ويكونون عيناً للعدو طمعا في مال أو جاه أو ضنّاً بأنفسهم عن مواطن الفداء، وظناً أن العدو الذي سيطر ببطشه يحميهم فيرتبط بقاؤهم ببقائه ولكن (أبو كليب) الذي خان قومه وأصبح جاسوساً عليهم يكون أول المتضررين حيث يهجم جنود العدو على قرينته فيقتلون ابنه!

ومع تدفق الدماء واشتداد عود الانتفاضة كانت القصة الإسلامية تواكب الأحداث حتى كأنه أصبح لكل حدث قصة أو قصص، فقد كتب عبد الله الطنطاوي عشر قصص في عشرة كتب يرويها عن السنة الذين شاهدوها (١١) فكان منها: منصور لم يمت- القدس لا تؤمن بالدموع- السياج- ذبيح القدس- رحلة إلى جبل النار- وغيرها.

وهذه القصص كما يقول الناقد محمد حسن بريغش ليست خيالاً من خيالات الأدباء وإنما هي تسجيل بالكلمة الأدبية المبدعة لوقائع الجهاد المشرف لأطفال الحجارة ولهذا نرى أسماء المدن والقرى والأحياء والمستوطنات وأسماء العرب واليهود تتكرر فيها وتعطيها البعد الإنساني الراسخ المرتبط بالأرض المقدسة الذي استعصى رغم تأمر العالم مع اليهود على التغيير وفقدان أصالته وحقيقته ولون أرضه ورائحة وزيتونه وليمونه وبريقه وقداسته، وأنها تحيي في نفوس الشباب الذكريات الماجدة وتثبت في ذاكرتهم هذه الأسماء لمدهم وقراهم وأحيائهم وأبطالهم وأعدائهم؛ حتى لا تمحى بفعل التضليل والتزوير والإلهاء، لقد أصبح أطفال الحجارة عنواناً لجهاد أبناء فلسطين وجيل المستقبل ضد الاحتلال اليهودي وتأتي مجموعة (عندما تتكلم الدماء) (١٢) وكأنها تسجيل آني لما يجري على أرض فلسطين من وقائع الجهاد في الأرض المباركة، وكانت عناوين أقاصيصها تحمل إجماعات ودلالات على الوقائع التي تحملها الأحداث من مثل: لن يعيشوا بسلام- حيث يقف الشاب حمدان وهو ينتظر إلى شذاذ الآفاق القادمين إلى الأرض المختلة، وهو يضغط على أسنانه ويضم كفيه بعصية: «يسرقون أرضنا ويستبيحون قرينتنا ونقف هكذا نتفرج! يجب أن نفعل شيئاً.. يجب أن نتحرك».

وأقصوصة (لا يقهرون) (١٣) وهي تصور بطولات الشباب المجاهد الذي يزرع الخوف في قلوب المعتدين و(الهدية) (١٤) تتحدث عن مشاعر سجين مجاهد وأما (عذاب وعذاب)

(١٥) فتلتقي مع أقصوصة محمد السيد المسماة (أبو كليب) في تصويرها لنهاية أحد المتعاملين مع العدو في كشف خطط المجاهدين والدلالة عليهم، فينتهي كاخترقة البالية بعد أن نبذه اليهود وتبرأ منه أبناء جلدته.. وهكذا تتوالى أقاصيص هذه المجموعة كل أقصوصة تصور حدثاً: مأساة في منتصف الليل- المهندس يحيى عياش- قتلوا الرضيع- أقسى من الحجر- مسح العار- رد (الكتائب) حتى ليخال قارئ هذه المجموعة حين تقع عيناه على عناوين أقاصيصها أنه يعرف هذه الوقائع؛ لأنه رأى مثلها أو سمع عنها وإذا هي بطولات جديدة فلكل بطولة لون ولكل تضحية طعم، وقد برز فيها جانب التمسك بالعقيدة وحب الجهاد ومعاني الفضيلة والبذل والإيثار والترابط والأخوة والإقدام والثبات والعزيمة والإصرار على مواصلة الجهاد ورفض كل أنواع الاستسلام (١٦) .

ويسابق فوزي صالح في روايته (كنوز قارون) الزمن ليثبت للذين يظنون خيراً بيهود أنهم مخطئون فيمزج الواقع بالتاريخ ويوظفه لبيان مدى عداة اليهود وخستهم، وأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، وأن مستقبل معاهدات السلام معهم هو النقض وعدم الوفاء؛ لأنهم نشأوا على الغدر وقد سبرت الرواية أغوار المستقبل بما يحمله من صراع فكري وسياسي واجتماعي من خلال رؤية صادقة تعتمد على حقائق العلم وثوابت الحياة وتجارب التاريخ.. ومما يحمده للفن القصصي- أنه عاش مع القضية ولم يتعاطف معها فقط، فهو يسير مع مواكب شهدائها ويتلون بدماء ضحاياها.

وقد شارك غيره من فنون الأدب، فظهرت روايات وقصص اقتصرت في معالجتها على القضية الفلسطينية أو أحد جوانبها، وعادت بها إلى خفايا اليهود وغدرهم وحقدهم على بني الإنسان من غيرهم. وقد وجدنا هذا متمثلاً في قتلهم الأنبياء كما صورته قصص (عبد الحميد جودة السحار) وفي عداوتهم للإسلام منذ بزوغه كما في (نور الله) لنجيب الكيلاني وفي خستهم ولؤمهم وتآمرهم على الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها كما أبرزته قصة (مشرّد بلا خطيئة) ل محمد عبده يماني و(كنوز قارون) لفوزي صالح، وهناك عشرات الأقاصيص في عدد كبير من الجاميع القصصية عاجلت جوانب معينة بقدر ما تستطيع الأقصوصة معالجته.. كما وجدنا في مجموعة محمد السيد (شاطئ الرؤى الخضر) وقصصه في المجموعة المشتركة (خط اللقاء) ومحمد جاد البنا (الفيستان والرصاص) ومحمود مفلح (القارب) وعبد الناصر محمد مغنم (عندما تتكلم

الدماء) وحفلت المكتبة القصصية الإسلامية بعشرات آخر، منذ أن برز الغدر الصهيوني على أرض فلسطين وحتى يومنا هذا ....

المراجع:

(١) دليل مكتبة الأسرة المسلمة ص ٤٥٢ - ٤٥٣

(٢) تجربي الشخصية في القصة الإسلامية ص ٥٥ وما بعدها

(٣) أقصوصة الأرض ص ٣٥

(٤) أقصوصة الفستان والرصاص صفحة ٣٧

(٥) أقصوصة المخيم والبحر ص ٦١

(٦) أقصوصة العودة ص ٢٥

(٧) خط اللقاء ص ٤١

(٨) العملاق ص ٦١

(٩) رحلة مع الموت ص ٨٥

(١٠) أبو كليب ص ١٠

(١١) سلسلة أطفال الحجارة (١-١٠)

(١٢) لعبد الناصر محمد مغنم

(١٣) أقصوصة لا يقهرون ص ١٢

(١٤) أقصوصة الهدية ص ١٩

(١٥) أقصوصة عذاب وعذاب ص ٢٦

(١٦) مجلة المجتمع الكويتية العدد ١٢٠٧